

(الحاضرة الرابعة)

المبحث الثالث

كيف ندرس المدارس الكلامية

إذا اردنا معرفة كيفية دراسة المدارس الكلامية لا بد أن نقف على غايات هذا العلم وفوائده ،وغايات دراسة هذا العلم وفوائده تنتوع ، بتتوع زوايا معالجة موضوعه ، ومن هنا كان لابد من عرض تفصيلي لمجموع الغايات ^(١).

١. الغاية الوظيفية:

تقرير الأسس المعرفية التي تبنى عليها الأصالة الحضارية للأمة يقتضي تخلية العقول والقلوب وتنقيتها من المعرفة الدخيلة وهذا يفرض الخوض في المشاكل المعرفية المعاصرة ، التي لأغلبها - كما هو معلوم -أصل ثقافي سابق كان لسلفنا شرف الرد عليهم وبحثه بشكل يثير الاعجاب والنخوة للدفاع عن ميراثنا الثقافي بتوظيف تلك الردود ، إن من أهم يقتضي المطارحة الموضوعية التمييز بين الأصيل والدخيل في المسألة الثقافية والحضارية، ودراسة المدارس الكلامية يخدم هذا المقصد ويساهم بشكل واضح في تمييز الأصيل من الدخيل ، كما يسهم في الفصل بين الديني المستمر البقاء ^(٢) عن الزمني الوقتي المرحلي الذي يبطله أو يصوبه البحث الثقافي المعرفي الجديد أو المتجدد ^(٣).

مثال ذلك : بحث مسألة أصالة مذهب المعتزلة ، وقد قيل فيه ما قيل ،فهل نبقى مكتوفي الأيدي مسلمين بما قاله كل من سبق؟ أم أننا يجب أن ندلي بدلونا لعلنا نظفر بموقف جديد يجمع بين آراء سابقة أو يتبنى وجهة نظر جديدة .

٢. الغاية المعرفية التفصيلية :

دراسة المدارس الكلامية بمنهج موضوعي مؤسس على تقوى الله ، سيفضي في الغالب الأعم بصاحبه الى المعرفة الحقيقية لأسباب الاختلاف بغرض توقيها ، والكشف عن دواعي الخلاف التي ينتشبت به بعض علماء المدارس الكلامية .

٣. معرفة مقاصد الشريعة :

الحكم على الشيء جزء من تصوره ، لهذا لا يتسنى الحكم على درجة انضباط مدرسة كلامية أو

(١) ينظر تفاصيل ذلك : مدخل الى دراسة الفرق (ص ٤١ الى ص ٥٦)

(٢) المبادئ الأساسية في القرآن الكريم والسنة وأعمال السلف بل وحتى ممارسته للعبادة مستمر البقاء لا يؤثر فيها عامل الزمن ، فهي مبادئ معاصرة دوماً، ولا يمكن ان يأتي اليوم الذي تستغني فيه البشرية عن الحاجة إليها ، ولعل من أبرز تلك المبادئ الحرية ، والسلم ، والأمن ، ونحوها .

(٣) مدخل الى دراسة الفرق (ص ٤٢-٤٣)

أخرى بالمقاصد الا اذا عرفنا المقاصد المعتبرة عند الشارع الحكيم .
وبهذا يمكن معرفة أسباب أهمالها أو الجهل بها لدى المدارس الكلامية حين التعامل مع النص أو أحداث الزمان .. وأوضح مثال على ذلك قول البعض عن تساؤل المعتزلة عن مسائل الذات والصفات أو ما يقرب منها مخالف لمقاصد الشارع .

٤ . معرفة دور العقل :

شاع في بعض المدارس الكلامية الافراط في العقل كما شاع في شطر آخر التفريط فيه ، لهذا يجب العمل على معرفة دور العقل في الاسلام ، لأنه بمثابة المعرفة الحاسمة لدور العقل مع النص (المتيقن من صحته عقلا) .

ولعل أبرز ما يمثل به في هذا السياق ما قيل في مغالاة المعتزلة ومحققي الاشاعرة في العقل ، وفي مغالاة فريق آخر ضد العقل ، واتخاذ موقف موضوعي من الفريقين ، وهذا يفرض قراءة المدرستين والحكم الصادر في حقهما ثم المقارنة والترجيح .

٥ . اكتشاف الحدود الفاصلة بين الدين والتراث المعرفي الاسلامي

ترجع كثير من خصومات المدارس الكلامية إلى عدم التمييز ما بين الدين والتراث المعرفي الاسلامي ، ولا طريق أماننا لتجاوز هذه المشكلة غير الكشف عن الحدود الفاصلة بين الدين والتراث المعرفي الديني في مجال المصادر المعتبرة بهدف تجاوز الخط المقصود حيناً وغير مقصود حيناً آخر ، لأن النص القطعي الثبوت والدلالة تخضع له الاعناق ضرورة ، أما ما سوى ذلك فإنه لا يتعدى دائرة الاجتهاد ، وما كان هذا شأنه فإنه وإن كان مؤثراً من جهة الالتزام فإنه دون تلك المرتبة من جهة إلزام الآخر بما حواه .

ومثال ذلك : مسألة الامامة عند الشيعة أصل مذهبي من اصول مذهب التشيع ، بمعنى ان من أنكرها لا يكون شيعياً ، لا أنه لا يكون مؤمناً أو مسلماً . لأنها مسألة أجتهدية في حدود المذهب .

٦ . النزعة الوظيفية للتفريق بين الدين والخبرات في العلوم الشرعية

تعد معرفة الحدود الفاصلة بين الدين والخبرة المعرفية في العلوم الشرعية حال تمكن التقوى بمضمونها المعرفي أهم الموانع من استعمال ألفاظ التبديع والتفسيق والتضليل والتكفير ، وما شاكل ذلك من الاحكام وهو مدعاة للتقارب وفق أسس موضوعية تبتعد عن التأليف في مسلكين أحدهما للاستهلاك المحلي بين أفراد المذهب وثانيهما للتصدير (لآخر) وبيتعد فيه الوصف الحقيقي للمذهب ، مما يسهم في فهم غير صحيح لتلك المذاهب الاخرى .

لعل من أبرز من عبر عن الحدود الفاصلة بين الدين والخبرات المعرفية الاسلامية قول شيخ الاسلام ، حيث قال : « والذي نختاره أن لا نكفر أحداً من أهل القبلة . والدليل عليه أن نقول: المسائل التي اختلف أهل القبلة فيها، مثل أن الله تعالى هل هو عالم بالعلم أو بالذات؟ وأنه تعالى

هل هو موجد لأفعال العباد أم لا؟ وأنه هل هو متحيز وهل هو في مكان وجهة؟ وهل هو مرئي أم لا؟ لا يخلو إما أن تتوقف صحة الدين معرفة الحق فيها أو لا تتوقف، والأول باطل، إذ لو كانت معرفة هذه الأصول من الدين لكان الواجب علي النبي صلي الله عليه وسلم أن يطالبهم بهذه المسائل، ويبحث عن كيفية اعتقادهم فيها، فلما لم يطالبهم بهذه المسائل، بل ما جري حديث في هذه المسائل في زمانه عليه السلام، ولا في زمان الصحابة والتابعين رضي الله عنهم، علمنا أنه لا تتوقف صحة الإسلام علي معرفة هذه الأصول. وإذا كان كذلك لم يكن الخطأ في هذه المسائل قدحاً في حقيقة الإسلام، وذلك يقتضي الامتناع من تكفير أهل القبلة.»^(٤)

٧. التنبيه الى محتوى الدراسات الشرقية .

أهتم المستشرقون بدراسة المدارس الكلامية من زاويتي المنهج والموضوع ، فذهب بعضهم الى مناصرة مدرسة كلامية على حساب اخرى ،ومال آخر إلى نقيض ذلك الرأي ..وهكذا دواليك ، وفحص مختلف الآراء وتحليلها تحليلاً موضوعياً ، يسمح بفهم خبرات أسلافنا فهماً صحيحاً بطريقة مباشرة تلغي كل الوسائط غير الأمنية أو المشبوهة .

٨. لو خير الإنسان السوي الطبع ، بصرف النظر عن ثقافته ودينه ، بين العلم بفكرة وجهلها ، لاختار العلم ،ذلك ان الانسان فضولي بطبعه ، وعلم المدارس الكلامية مشبع لفضول الإنسان العاقل فضلاً عن الباحث الرسالي الذي لموضوع البحث صلة وثيقة بمهمته الرسالية.

(٤)درء تعارض العقل والنقل (١ / ٩٥-٩٦)